



تاريخ ضائع.. قراءة لعصور ولت ورؤية لعصور جديدة

محمد عويس



يعد هذا الكتاب (تاريخ ضائع: التراث الخالد لعلماء الإسلام ومفكره وفنائه)، واحد من أهم نماذج التواصل بين الإسلام والغرب، إذ إن ترجمته ونشره في هذا الوقت يمثلان خطوة مهمة في ظل ما نعيشه من رغبة عالمية في سيادة روح التسامح والتفاهم بين مختلف الحضارات والأديان، خاصة وأن المؤلف مايكل هاميلتون مورجان، دبلوماسي أميركي سابق، ومؤسس ورئيس منظمة «أسس جديدة للسلام» New Foundation for Peace يتوجه بكتابه هذا إلى مخاطبة القارئ العادي بحقائق فعلية مثبتة تاريخياً عن دور الفكر والفض والفلسفة العربية والإسلامية في نهضة الثقافة الغربية والعالمية.

كما أن سيطرة عدم الثقة وسوء الفهم فيما يتعلق

بعلاقة الإسلام والغرب جعلت من الأهمية بمكان تذكر ما كانت عليه حضارة الإسلام ومكانتها التي أثار اهتمام العالم وتطلعاته، يأتي الكتاب ليسد الفجوة بين الحضارتين الإسلامية والغربية ويكون أساساً لكل من يسعى لفهم الأثر الذي أحدثه المسلمون الأوائل في مجتمعنا الحديث، ويكشف المؤلف كيف أن الإنجازات التي حققها المسلمون في العلوم والثقافة وضعت حجر الزاوية لعصري النهضة والتنوير في أوروبا، بل وللمجتمع الغربي الحديث، يعرض الكتاب سرداً زمنياً للعصور الذهبية للحضارة الإسلامية بدءاً من مولد النبي محمد ﷺ في مكة عام ٥٧٠م مع بيان صدى ذلك في العصر الحاضر، وهو في ذلك يعرض لعلماء أمثال: ابن الهيثم، ابن سينا، الطوسي، الخوارزمي، عمر الخيام، وهي شخصيات رائدة أحدثت ثورة في علوم الرياضيات والفلك والطب في عصرها، ومهدت الطريق أمام نيوتن وكوبرنيكس وآخرين.

الأهمية للإسلام في مجموعة من التواريخ وأسماء للمعارك والغزوات، ويصورها التاريخ الغربي كلها على أنها مجرد وسيلة لفرض هذا الدين الجديد بشكل جبري، وعلى الرغم من أن أقل ما يوصف به تقدم الجيوش العربية في هذه السنوات الأولى بأنه حملة عسكرية واسعة النطاق، ومع كل الآثار المؤسفة والمصاحبة لهذه الحملة، والتي دائماً ما تقع إبان الحروب فإن بعض الروايات التي تسرد وقائع هذه الفترة تنسى في ذات الوقت

٦٣٦ يدمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوات الإمبراطور البيزنطي هرقل، وفي عام ٦٤٢ يرسل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجيوش إلى مصر التي كانت تخضع للحكم البيزنطي ويبدأون في التقدم نحو شمال إفريقيا، وفي عام ٦٤٤ يتولى عثمان بن عفان الخلافة تبعاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي عهده اكتمل فتح بلاد الفرس في عام ٦٥١.

ويختزل التاريخ الغربي انتصارات جيوش المسلمين هذه في هذا القرن الأول بالغ

تعامل الغرب مع أحداثها، فيذكر أنه بعد مرور عامين فحسب على وفاة الرسول، صلوات الله عليه وسلامه، نجد الجيوش العربية تفتح مساحات شاسعة من الإمبراطورية البيزنطية شاملة سورية وفلسطين، ويلي أبوبكر الصديق عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، في خلافة المسلمين ويقود هذا الأخير الجيوش العربية إلى نطاقات أعمق داخل كل من الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية، وفي معركة اليرموك في سورية في العام

ويذكرنا مايكل مورجان بأن عصور القادة المسلمين الذين ألهموا العالم، وعلى رأسهم النبي محمد ﷺ مروراً بسليمان القانوني ومن جاء بعده قد تجلت فيها مظاهر تسامح الدين، كما ازدهر البحث العلمي والفكري وابتدأوا هم أنفسهم رعاة للفن والعمارة والأدب، فكانت إبداعاتهم لا تزال تفتننا بروعتها وحرفيتها. ومن القضايا التي ضمنها مورجان صفحات كتابه الفتوحات الإسلامية وكيفية

باحث في التاريخ



إنجازات المسلمين في العلوم والثقافة وضعت حجر الزاوية لعصري النهضة والتنوير في أوروبا



منا لا يعرف تفاصيل التاريخ الإسلامي بسبب حواجز اللغة وانقضاء العديد من القرون، وكذا الإشارات المبهمة عن أسماء وأماكن وأحداث لا نعلم عنها شيئاً، ذلك بالإضافة إلى السرد المتعرج لتاريخ أوروبا والذي يعزي لها الفصل في كل شيء في عصر النهضة وفي جميع أشكال التقدم الذي حدث بعد ذلك، ومن ناحية أخرى فإن المسلمين التقليديين المتزمتين يستأصلون شأفة نظراتهم من أصحاب النظريات غير التقليدية، كما أن عمليات إحراق الكتب وتدمير المكتبات عبر التاريخ قد ساهمت هي الأخرى في تعزيز جهلنا بالتاريخ الإسلامي.

وقد أمعنت مجموعات قليلة من الأكاديميين النظر في هذه القضايا بجدية من خلال وجهات نظر متباينة وخلصوا إلى نتائج مختلفة.

وأول هذه المجموعات والتي أخرجت التاريخ الفكري الإسلامي إلى حيز النور هي مجموعة «المستشرقين»، يرى هذا الفريق أن العالم الإسلامي يمر بمرحلة من الإبداع الفكري بالتحديد من عام ٨٠٠ حتى ١٢٠٠ ميلادياً، وقد ساهم في إحداث هذه النهضة ترجمات المفكرين الإغريق، وما لبث أن انتقل حسم المعرفة هذا ذو الأصول الإغريقية إلى الأوروبيين بفضل المسلمين، وفيما بعد وبسبب هجمات المغول والاضطرابات الداخلية التي منعت من تطور الفكر الحر داخل المجتمعات الإسلامية تخلفت الدول الإسلامية عن

«أنهم كانوا من العظماء في يوم من الأيام وأنهم اخترعوا علم الحساب ثم سقطوا في مستنقعات التأخر»، كما أن معظم الغربيين قد تلقن أن جذور المجد الغربي تعود إلى أيام الرومان والإغريق، وأنه بعد سبات دام ألف عام بين مجاهل عصور الظلام، حدثت المعجزة واستيقظت أوروبا لتستعيد صلاتها بأصولها الرومانية والإغريقية، وكما تشير الرواية التقليدية، إن إعادة إكتشاف بلاد الإغريق الكلاسيكية وما صاحبه من دعم أخلاقي أساسه الاعتقاد اليهودي المسيحي، قد تمخض عنه عصر النهضة والتنوير والثورة العلمية والصناعية، أما الإسهامات الفكرية للعرب والفرس والهنود والصينيين والأفارقة وآخرين في العالم الإسلامي فقد اختزلت واقتصررت على الحواشي المتناثرة هنا وهناك.

كما أن السواد الأعظم

الناشئة، فمسألة تغيير الديانة التي كانت تحدث في تلك الأيام الأولى من نشأة الحضارة الإسلامية كانت تتم بناء على رغبة الأشخاص أنفسهم، ولم يقم الحكام المسلمون محاكم للتحقق من نية من يدخل الإسلام، فربما لجأ البعض لذلك لخفض نسب الضرائب التي يدفعونها، ويحسنون من درجة ترقبهم داخل المجتمع ويسهلون على أنفسهم مسألة الاندماج في الحياة التجارية والحكومة، كما كان يسمح لهؤلاء ممن لم يعتنقوا الإسلام بالاحتفاظ بدور العبادة الخاصة بهم، كما يحظر ادعاء النبوة أو التعدي على النبي ﷺ.

أيضا يشير المؤلف إلى قضية في غاية الأهمية ألا وهي أن معظم الأميركيين بما فيهم الأميركيون المسلمون وحتى عدد كبير من المسلمين حول العالم لا يعرفون سوى قشور التاريخ الإسلامي أي

أن تؤرخ أيضا للأحداث المؤثرة التي وقعت أيضا في هذا السياق.

أولاً: ينسى هذا النسيج التاريخي التقليدي أن أحد الخيوط المؤثرة، والتي أدت إلى انتشار الإسلام بشكل سريع، يرجع جزئياً إلى الانتعاش الاقتصادي، والتي لم تتحقق بفعل الغزوات أو إجبار الآخرين على تغيير ديانتهم واعتناق الإسلام، كما أدى النظام العربي الذي اعتمد على دفع رواتب الجنود نقداً دوراً كبيراً في خلق اقتصاد سوق نقدي حضري في الفترات الأولى من إنشاء الدولة الإسلامية، وهذا يعني أن كمية كبيرة من العملة يتم تداولها، الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى التنمية الحضرية وإعادة إحياء الحياة التجارية في البلدان والمدن التي بدأت في الانهيار اقتصادياً بفعل الحروب البيزنطية الفارسية.

ثانياً: يفتقر هذا النسيج إلى ذكر حقيقة أن تحويل سكان الدول التي غزاها المسلمون إلى اعتناق الإسلام لم يتم بالإكراه والقهر، فقد ظل المسلمون أقلية في الكثير من المناطق التي وقعت تحت الحكم الإسلامي وفي بعض المناطق، مثل فارس على سبيل المثال، كانت نسبة المسلمين أقل من عشرة في المائة من السكان وذلك في القرن الأول من توسع الدولة الإسلامية. إنما فرض الإسلام الجزية على أهل الكتاب نظير رعايتهم وتقديم الخدمات الاجتماعية لهم في ظل الدولة الإسلامية



إلى الحياة واستحضار الماضي المسلم المغفور والغامض والبعيد، وإظهار كيف أن الأحداث والأفكار التي مضى عليها ألف عام لها علاقة مباشرة بحياتنا اليوم.

ويختتم المؤلف كتابه بطرح رؤية مغايرة للواقع الذي ألم بالعالم الإسلامي موضعاً أنه كان من الممكن للتاريخ أن يأخذ مساراً مختلفاً في تلك اللحظات النادرة من التوازن بين الصين والهند والعالم الإسلامي وأوروبا في أواخر القرن ١٥ والقرن ١٦، أي من منافسي أوروبا من الممكن لهم اتخاذ نفس القرارات المصيرية التي قامت بها إسبانيا والبرتغال وإنجلترا لدعم رحلات الاستكشاف والغزو، كان من اليسير على الصينيين الإبحار إلى الباسيفيك وعلى الأتراك العثمانيين السيطرة على الأطلنطي.

ماذا لو أن المنافسات الاستعمارية في الأمريكتين وجنوب شرق آسيا كانت بين الأوروبيين والصينيين والأتراك وليست بين القوات الأوروبية؟ ماذا لو أقام الأتراك والصينيون مستعمرات سعياً لإصلاح اقتصادهم ومجتمعاتهم ومناخهم الفكري لتكييف الحاجات مع الإمبراطوريات الجديدة العابرة للمحيط؟ هل كان سيوجد عصر نهضة واستتارة أكثر انتشاراً؟

يعتقد الكاتب أن هذا كان ممكناً حدوثه، كما يمكن للمسيحية أن تصبح أكثر انغلاقاً في معاداة المادية والتعصب، كما كان لبعض

«أنصار الإسلام» على الرغم من أن أتباعها هم عدد قليل من السلك الأكاديمي، وتذهب هذه المجموعة إلى أن المسلمين اخترعوا تقريباً كل المظاهر الحديثة للعلم والطب والتكنولوجيا والنظام الاجتماعي إلا أنهم قد سلبوا حقهم إذ إن كل هذا لم ينسب إليهم.

لقد كتب «تاريخ ضائع» عن وعي بكل هذه الرؤى متضمناً عناصر من كل منها، بيد أنه في ذات الوقت لم يتحيز لأي منها ولكنه يتفق معها جميعاً بشكل من الأشكال.

ولم يكتب «تاريخ ضائع» للتعبير عن موقف وسط هذه المناظرة الأكاديمية البحتة، إنما يقصد إلى توضيح الخطوط المبهمة في تاريخ المسلمين، والتي تلقاها معظمنا، والتمسك بالحقائق الراسخة مع إعادة أهم الشخصيات والأحداث

ويمكن إطلاق اسم «الليبراليين» على المعسكر الرابع، وترى هذه المجموعة أن مثل الدين الإسلامي وقيمه لم تكن عائقاً أو مقوضاً لتقدم العالم الإسلامي، ولكن هي التي ساهمت في إحداث تقدم في العلوم والتكنولوجيا والمجتمع المدني، وتتمثل تلك القيم والمثل في الرغبة في النهل من المعرفة ومساواة جميع البشر أمام الله، وفيما بعد انتقلت أشكال التقدم هذه إلى أوروبا ومنها إلى العالم بأسره، وهي لا تزال تحتل مكانة من الأهمية في القرن الحادي والعشرين، وربما يذهب هؤلاء المفكرون أيضاً إلى أن الحضارة الأوروبية اليهودية المسيحية ينبغي أن تضاف إلى توصيفها كلمة إسلامية أيضاً.

أما المجموعة الخامسة فيمكن تسميتها بمعسكر

بقية دول العالم.

أما المجموعة الثانية في تيار المحافظين الجدد وترى هذه المجموعة التي ركزت على دراسة الشرق الأوسط المضطرب أنه وعلى الرغم من أن العرب يمثلون ١٧ في المائة فقط من إجمالي مسلمي العالم إلا أن الحضارة الإسلامية تضم في طياتها عناصر تناقض مع الحرية الفكرية والتقدم الاجتماعي والعلمي والديمقراطية الليبرالية، وقد طغت أفكار تيار المحافظين الجدد بشكل غير مسبوق على السياسة الخارجية والإعلام الأميركي خاصة في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر، ويعي الكثير من غير المسلمين حول العالم هذا التيار الفكري.

أما المجموعة الثالثة فهي معسكر العلوم المبتدئة والتي ينضم إليها في الوقت الحالي عدد من العلماء المعاصرين، وتذهب هذه المجموعة إلى أنه حتى القرن الخامس عشر كانت علوم وتكنولوجيا المسلمين تفوق مثيلاتها في أوروبا، وقد تسرب الكثير من مظاهر التقدم هذه إلى أوروبا إبان القرون الوسطى واضعة نواة النهضة الأوروبية القادمة، ولكن ما حدث بعد ذلك هو أن الاضطرابات الداخلية قد بلغت المدى داخل العالم الإسلامي وظهرت بعض المعوقات الخاصة بهذه الثقافة، علاوة على تزايد الأزمات الاقتصادية والمناخية، ولم يستطع المسلمون اللحاق بركب العلم الحديث مثل الصين والهند وهو ما قامت به أوروبا.

بعض المفكرين يرى أن الحضارة الأوروبية اليهودية المسيحية ينبغي أن تضاف إلى توصيفها كلمة إسلامية أيضاً





شمس أوروبا وغروب شمس العالم الإسلامي وجهين لعملة واحدة.

بحلول القرن الـ ٢١ صارت بعض مراكز الابتكار الإسلامية القديمة جزءاً من العالم النامي بكل مشاكله الناشئة مثل الفقر والجمود الاقتصادي وعدم الاستقرار السياسي، فقد ضاع تاريخهم الثري وفيما يبدو صار مجرد أطلال.

وبعد هذه القراءة لتاريخنا الحضاري يشير مورجان إلى أن العالم بتغير مرة أخرى فكل بقعة أزمنة، ويوجد مركز ابتكار واحد في العالم الإسلامي، أصبحت مجتمعات المسلمين المهاجرين في أوروبا والأميركتين بمثابة نقاط التقاء، فإن تقابل الثقافات لا يؤدي فقط إلى التوتر، بل إلى نشر الأفكار الجديدة وهو الوصول إلى تفاهم مشترك.

ولست عصور المسلمين الذهبية الأولى ولكن على ما يبدو أن هناك عصوراً جديدة تخرج إلى النور على الرغم من أن العناوين اليومية تشير إلى عكس ذلك.

انحدر مستوى العلوم الإسلامية عندما تحولت مواردها إلى الدفاع العسكري

بعملية إعادة البناء. في القرن الـ ١٧ عندما بدأت الدول الأوروبية تستعمر الأميركيكتين تلقوا أنهاراً من ثروات ما وراء البحار، وهو الأمر الذي مكنتهم أيضاً من القيام بغزواتهم الاستعمارية في العالم الإسلامي.

وجهت الإمبريالية الأوروبية الضربة القاضية للعالم الإسلامي في الشرق الأوسط وإيران وأفريقيا والهند وجنوب شرق آسيا، أدى الاستعمار بالكثير من دول هذه العالم إلى كساد اقتصادي، والذي سيستغرق قروناً حتى يتم التخلص منه.

بما أن كلاً من العلوم والتطوير يعتمدان على مساندة قيادة الدولة وتمويلها فقد انحدر مستوى العلوم الإسلامية، عندما توجب على دولها تحويل مواردها إلى الدفاع العسكري بعد القرن الـ ١٦، من ثم أصبح بزوغ

في هذا الجمود، فبعضها كان نتيجة للحظ السيئ، وبعضها الآخر بسبب التطور الثقافي. تكمن جغرافية الإسلام في مهد الحضارات حيث ظهرت الثقافات الأولى في بلاد الرافدين ووادي النيل ووادي السند بترائها الزراعي الأول، هذه الأقاليم نفسها تحولت إلى صحاري خلال ألف عام موفرة القليل من الفرص الاقتصادية.

إن الأثر الذي خلفته الأمواج المتتالية من الغزوات الآسيوية الوسطى بقيادة السلاجقة والمغول والعثمانيين على قلب الأراضي الإسلامية هو الدمار التدريجي لمراكز الابتكار الإسلامي، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا الوسطى والغربية بمنأى عن احباطات وتمزقات هذا الوقت مما سمح لهم باستكمال تطورهم في الآونة التي كان على الشرق الأوسط وإيران وتركيا القيام

التغيرات في الخلافة الملكية أن تأتي بعملية التحقق إلى انجلترا، وكذا كان ممكناً أن يصبح أوليفر كرومويل الراعي الرئيسي للفلسفة السياسية الإنجليزية وليس جون لوك، في هذا الكون الموازي كان ممكناً للعالم الإسلامي أن يقود مزاي عصر النهضة والاستتارة التي غرس بذورها علاوة على الاستمتاع بها، كان يمكن للمسلمين أن يقودوا عصر الاكتشاف والإمبريالية الذي تولاه الأوروبيون المسيحيون بدلاً منهم، يرى الكاتب أنه لم توجد أي حتمية لظهور الغرب.

يعتبر هبوط تلك الثقافات الابتكارية الأولى أمراً مأساوياً من الناحية التاريخية والإنسانية، لماذا تخلفت عن الركب تلك المجتمعات التي قادت العالم لقرون في مجالات شتى ووضعت الأساس لبزوغ الأفكار والعلوم الأوروبية؟

سيظل المؤرخون والعلماء يناقشون هذا السؤال حتى نهاية الزمان، وبينما لا توجد إجابة واحدة عن هذا السؤال فإنه من الممكن إرجاع الأمر إلى عدد من العوامل التي ساهمت